عصر المرابطين

انتقل الأندلس من الاستقلال إلى الخضوع لمن هم دونه ثقافةً وعلما : بربر شمال أفريقيا الذين أطلقوا على أنفسهم لقب : "المرابطون". جاءوا للإنقاذ فأوشكوا أن يغرقوا السفينة، لأن من سيكمل المهمة المأساوية هم بربر أيضا ثاروا على المرابطين حملوا لقب : "الموحدون". وسأكتفى هنا بإيراد ما كتبه غارثيا غومث بادئا بعبارة المعتمد ابن عباد المشهورة عندما حذروه من المرابطين : "أفضل أن أرعى جمالا فى بلاد الإسلام على أن أكون راعى خنازير فى قشتالة (أكبر الممالك المسيحية فى شمال الأندلس). يقول غارثيا تحت عنوان "عصر المرابطين : الانحسار" :

فى اليوم الذى آثر فيه المعتمد بن عباد أن يكون راعى جمال فى صحراء إفريقيا على أن يكون راعى خنازير فى قشتالة وقرر أن يستدعى المرابطين لم يكن يعلم أى لعنة دعا بها على مصير الشعر. ولست أملك إلا أن أمر مروراً سريعاً بهذه الفترة من انحسار الشعر، وذلك لأننى أفردت لها منذ سبع سنوات دراسة خاصة فى خطاب مجمعى.

كان الشعراء فى ظل ملوك الطوائف ينعمون بما لم ينعم به الشعراء قط، وكان الشعر فى أيديهم وسيلة لبلوغ أقصى ما يتمناه صاحب صناعة، وبينا هم فى هذا النعيم إذا بكل شئ يتبدل فجأة، فقد ذهب الملوك الذين كانوا يغدقون عليهم العطايا؛ إذ كانوا هم أنفسهم شعراء وعلى درجة رفيعة من الثقافة، وخلفهم سلطان إفريقى كان لا يكاد يعرف العربية، فنطقه بها كان لُكْنَةً ورطانة بربرية، ينشدون أمامه من شعر المديح ما يحفل بالصور الرائقة العجيبة، فلا تحرك منه ساكنا وكان الشعراء يحظون بحرية

التعبير المطلقة فى ظل سياسة ملوك الطوائف، فلم يحكم المرابطون البلاد حتى عاد معهم الفقهاء المتزمتون لفرض سلطتهم المتشددة ورقابتهم التى لا تعرف التسامح. والعطايا التى كانت تنهال على الشعراء أعقبها المنع والإمساك. وإشبيلية عروس الشعر وراعيته تحولت إلى عدوة له حتى صب عليها الشعراء جام الكراهية. لم يبق من فردوس الشعر إلا واحة صغيرة منعزلة فى بلنسية، إذ سطعت فى جنانها الوارفة شعلة من الشعر الغنائى تعهّدها وصنّاف الطبيعة من أمثال ابن خفاجة وابن الزقاق وأما بقية الشعر الأندلسى فكأنها كانت تنطق بلسان ابن بقى حينما وصف أحوال الشعر فى أيامه بقوله (قلائد العقيان لابن خاقان ص ٣٢٣) :

أكل بنى الآداب مثلى ضائع ... فأجعل ظلمى أسوة فى المظالم

ستبكى قوافى الشعر ملء جفونها ... على عربى ضاع بين الأعاجم

وهى عبارات تذكرنا بأبيات مشابهة قالها الشاعر اللاتينى أوفيد

أنا أجنبى أعجمى، لأننى لا أفهم شيئا من هذا

والكلمات اللاتينية التى يقولها ذلك الغبى جيتا تضحكنى

على أننا نسجل هنا خصيصة من خصائص الحضارة الإسلامية، وهى أنه لا ينسى فيها من التراث شئ، فالأجيال التالية تحرص على جمع كل ما ينتمى إليه فى إجلال يقارب التقديس، والقواعد الجمالية الموروثة تظل ثابتة راسخة الجذور، والماضى بعظمته وتألقه يتضخم حتى يكاد الحاضر يختنق تحت وطأته. فهذا العصر – عصر المرابطين – هو الذى شهد، لحسن حظنا، ذلك التقديس لماضى الشعر المزدهر خلال العصر السابق، وكان من آثار ذلك أن عمل الأدباء على جمع التراث الأدبى فى

ظل ملوك الطوائف، فألف ابن بسام وابن خاقان منتخباتهما من شعر ذلك العصر ونثره فى كتابيهما "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة" و "قلائد العقيان ومحاسن الأعيان".

كان الشعراء خلال هذا العصر يحسون أنهم يعيشون فى زمن أدركه الهرم، فلم يعد لهم فيه مكان، فلجأ فريق منهم إلى الهجرة من أوطانهم، وحافظ فريق على كبريائه فاعتزل مجالس الأمراء، وعمد فريق ثالث إلى تغيير أسلوب نظمه، وذلك أن ابتعادهم عن بلاطات أصحاب السلطان جعلهم أقرب إلى عامة الشعب، ومن هنا عادت الحياة إلى الفن الشعبى المتمثل فى الموشحة، وظهر إلى الوجود فن أكثر إمعاناً فى الشعبية هو فن "الزجل".

وما أشار إليه غارثيا حول بلنسية يذكرنا بما أوردناه عن لقاء بين الشاعر والطبيعة.. إنه محور شعر بلنسية، لكننا نرى ثقلا يرزح تحته الشعراء،.. إنه الحزن الدفين الذى رأيناه يتحول إلى شعر تحريضى (نادر المثال فى كل العصور الوسطى على مستوى العالم) عند الأعمى التطيلى. لن نعدم وجود الشعراء العظام مثل ابن بقى الذى أشاد به المقال السابق، لكنهم امتداد لعصر الطوائف، ولعلهم فرّغوا شعرهم للبكاء على ملوكهم الراحلين، وشعرهم غير المرحَّب به.